نظم القرآن ومنهج ابن عاشور فيه
دراسة تقويمية

إسرار أحمد خان*

ملخص البحث

لقد اهتم المفسرون بنظم القرآن عند تفسيرهم للقرآن الكريم مثل اهتمام البلاغيين به تمامًا أو أكثر منهم. وأبرز المفسرين الذين اعتنوا به هم الأئمة: الرازي، والحرالي، والبقاعي، والفراهي، وابن عاشور، والمودودي، وسيد قطب، والإصلاحي، على اختلافهم في منهج نظم القرآن. والأهم عند هؤلاء المفسرين هو كشف الربط بين الآيات في سورة واحدة بغية تعيين وحدة الموضوع في السورة. ولكن الإمام ابن عاشور قد جاء بمنهج خاص في نظم القرآن، وهو أقرب إلى منهج أهل البلاغة فيه. فهذا البحث محاولة متواضعة لإبراز هذا المنهج الجديد الذي استخدمه ابن عاشور في تفسيره.

الكلمات المفتاحية: نظم القرآن، منهج ابن عاشور فيه، منهج البلاغيين فيه، منهج المفسرين فيه.

Abstract

The exegetes of the Quran paid their due attention to the subject of the coherence of the Quran surpassing the rhetoricians who tackled this subject. al-Razi, al-Harali, al-Baqai, al-FArahi, Ibn Ashour, al-Mawdudi, al-Islahi and Sayyid Qutb are among the most prominent exegetes who engaged with the issue of coherence in their own ways. To uncover the link between the verses in a Surat in order to determine the uniformity of the subject was the most important issue to these commentators. However, Imam Ibn Ashour came up with a particular coherence approach to the Quran, the nearest approach to the rhetoricians. This research is a humble attempt to highlight this new approach used by Ibn Ashour in his interpretation.

Keywords: coherence of the Koran, coherence approach of Ibn Ashour, approach of rhetoricians, coherence approach of the exegetes.

* أستاذ بقسم دراسات القرآن والسنة، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

Abstrak
Para takwil al-Quran memberi perhatian yang sewajarnya kepada subjek koheren al-Quran yang mengatasi para rhetoricians yang menangani subjek ini. al-Razi, al-Harali, al-Baqai, al-FArahi, Ibn Ashour, al-Mawdudi, al-Islahi dan Sayyid Qutb adalah diantara para takwil yang paling terkemuka yang terlibat dengan isu koheren dalam cara tersendiri. Untuk mendedahkan hubungan di antara ayat-ayat dalam al-Quran untuk menentukan keseragaman subjek adalah isu yang paling penting bagi para pengulas ini. Walau bagaimanapun, Imam Ibn Ashour mengemukakan pendekatan koheren al-Quran, pendekatan yang terdekat kepada para rhetoricians. Kajian ini adalah percubaan yang rendah hati yang mengetengahkan kaedah pendekatan yang digunakan oleh Ibn Ashour dalam interpretasinya.

Kata Kunci: Koheren al-Quran, Pendekatan Koheren Ibn Ashour, Pendekatan Para Rhetoricians, Pendekatan Koheren Para Takwil.

تمهيد

قد لا أكون مبالغا إذا قلت: إنّ المفسرين سواء أكانوا من المتقدمين أو من المتأخرين لم يكن عندهم منهج أصيل تبنّوه لتفسير القرآن، غير الثلاثة منهم الذين كانوا قد وضعوا مناهج أصيلة له. وهم محمد بن جرير الطبري (ت310هـ)، ومحمود بن عمر الزمخشري (ت538هـ)، ومحمد بن عمر فخر الدين الرازي (ت606هـ). وأما بقية المفسرين فقد حذوا – إلى حد كبير – حذو هؤلاء الثلاثة، ومن ثم جامع البيان للطبري، والكشاف للزمخشري، ومفاتيح الغيب للرازي هي كتب التفسير الأصيلة.

والمفسرون الذين نهجوا نهجا جديدا ومختلفا عما كان عند السابقين عددهم قليل. وأشهرهم إبراهيم بن عمر البقاعي (ت885هـ)، وعبد الحميد الفراهي (ت1930م)، ومحمد الطاهر بن عاشور (ت1973م)، وسيد أبو الأعلى المودودي (ت1979م)، وأمين أحسن الإصلاحي (ت1997م). والشيء الذي جعل هؤلاء الخمس مختلفين عن بقية المفسرين هو نظرية نظم

القرآن واستخدامه في تفسير القرآن. فتفاسيرهم: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي، ودلائل النظام للفراهي، والتحرير والتنوير لابن عاشور، وفي ظلال القرآن لسيد قطب، وتفهيم القرآن لسيد المودودي، وتدبُّرِ قرآن للإصلاحي، تعتبر تفاسير ممثلة لمدرسة نظم القرآن.

ما نظم القرآن؟ وما الغرض منه؟ وهل هذا نظرية فقط أم أسلوب لتفسير القرآن؟ فهذا المقال جواب عن هذه الأسئلة، وهو بجانبه نقدٌ لمنهج ابن عاشور في ما يتعلق بنظم القرآن في تفسيره.

نظم القرآن عند أهل البلاغة

ظنَّ البلاغيون أنّ البلاغة في القرآن التي تختلف عن البلاغة المعروفة لدى شعراء العرب الجاهليين هي موجودة في نظمه. وأساطين علم الإعجاز في القرآن: الجاحظ (ت255هـ)، والرماني (ت384هـ)، والخطابي (ت388هـ)، والباقلاّني (ت403هـ)، والجرجاني (ت471هـ)، يرون أنّ نظم القرآن هو أساس إعجاز القرآن، لذا لا يستطيع الإنسان أن يقلد نظم القرآن أو يحاكيه في شعره وكلامه. والنظم في القرآن -كما يقول أهل البلاغة- هو ترتيب الكلمات ومعناها والربط القوي بينهما، بحيث إنه إذا غير هذا النظام لكلمات القرآن ومعناها، يذهب الجمال القرآني، ولا يبقى القرآن كلامًا معجزًا[1].

[1] انظر الجاحظ، عمرو بن بحر، **الحيوان**، تحقيق: عبد السلام، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ط.، د.ت.)، ج4، ص89؛ والخطابي، حمد بن محمد، **بيان إعجاز القرآن**، من ضمن "ثلاثة رسائل في إعجاز القرآن"، تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول، (مصر: دار المعارف، مصر، ط4، د.ت.)، ص27؛ والجرجاني، عبد القاهر، **دلائل الإعجاز**، تحقيق: محمود محمد شاكر، (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1983م)، ص49-50؛ والباقلاني، محمد بن الطيب، إعجاز القرآن، تحقيق: أحمد صقر، (مصر: دار المعارف، مصر، ط5، د.ت.)، ص276-277؛ ومستنصر مير، **نظم القرآن**، (أمريكا: المؤسسة الأميريكية للنشر، 1986م)، ص10-16.

نظم القرآن والمفسرون

تفسير "جامع البيان في تأويل القرآن" للطبري أقدم التفاسير للقرآن الكريم، وهو تفسير بالمأثور، مكون من أحاديث الرسول ﷺ وآراء الصحابة والتابعين وأتباع التابعين. وما فعل الإمام الطبري في تفسيره إلاّ أنه عند تفسير كل آية أتى بآراء العلماء المتقدمين ورأيه هو، ولم يذكر في أيّ مكان نظم القرآن وأهميته في التفسير.

وجاء بعده عدة مفسرين، ولكنهم ما أتوا بأيٍّ جديدٍ على المنهج الأثري لابن جرير الطبري أو مختلفٍ عن منهجه، بل قلدوه واتبعوا منهجه. ثم جاء العلامة الزمخشري فأتى بمنهج جديد مكون من عناصر عديدة، منها رؤية اللغة العربية والاجتهاد، فأثَّر منهجه هذا في تفسير القرآن لمن جاء بعده تأثيرا عميقا. والعنصر الأساسي في تفسيره هو التعقل والتدبر في القرآن الكريم، ومع ذلك كله لم يصل العلامة الزمخشري إلى جوهر نظم القرآن.

وأما الإمام فخر الدين الرازي فقد استخدم في تفسيره (مفاتيح الغيب) منهجي الطبري والزمخشري، النقل والعقل معًا. وبجانب ذلك هو أول مفسر اهتم بنظم القرآن في تفسيره. ومن المحتمل أنه أخذ هذه الفكرة من القاضي عبد الجبار (ت415هـ) الذي كتب تفسير القرآن بعنوان "تنْزيه القرآن عن المطاعن"، وذكر فيه النظم بين الآيات القرآنية. ولا شك في أن الرازي اهتم اهتماما كبيرا بالنظم بين الآيات، ولكنه ما تجاوز فكرة أن اكتشاف الربط بين الآيات لطيفة علمية، وما رأى نظم القرآن منهجا مناسبا لتفسير القرآن.

وبعد الرازي جاء الحرالي (ت637هـ) الذي حاول تفسير جميع الآيات القرآنية على فكرة أنها مرتبطة بعضها ببعض. وكتابه "مفتاح الباب المقفَّل لفهم القرآن المنَزَّل" غير متوفر مطبوعًا، ولأجل ذلك لا أستطيع أن أصور كيفية نظم القرآن عند الحرالي، إلا أن البقاعي وصل إليه تفسير الحرالي ومنهجه، فاستفاد

إلى حد كبير من كتاب الحرالي في تفسيره "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور". ويبدو أن البقاعي هو أول مفسر حاول القول بالربط التام بين الآية والتي قبلها والتي بعدها، فيوجد عنده مبادئ لنظم القرآن بوضوح.

ولكننا لا نرى بعد البقاعي حضورًا لنظم القرآن عند علماء التفسير، واستمر الأمر عليه حتى جاء العلامة عبد الحميد الفراهي (ت1930م)، فأحياه من جديد، فكرس حياته ووقف عمره في تدبر القرآن، واكتشف عن نظم القرآن بصورته الكاملة، بما فيها المراحل التي لا بد من تخطيها لفهم القرآن وتفسيره. ومن الأسف أنه قضى نحبه قبل إكمال تفسيره المبني على نظم القرآن، ولم يتجاوز تفسير سورة البقرة وبعض سور قصيرة من أواخر القرآن. وقد حقّق أحد تلامذته وهو "أمين أحسن الإصلاحي" أمنية أستاذه الجليل بتأليف تفسير القرآن بكامله بعنوان "تدبر قرآن" باللغة الأردية. وأنا أعتقد أن سيد قطب، وسيد المودودي، ومحمد أسد قد تأثروا بمنهج نظم القرآن الذي قدّمه الفراهي.

تعريف نظم القرآن

لكون الكلام فصيحًا وبليغًا لا بد من توافر العناصر الأساسية فيه، التي هي: التمهيد، والعمود، والسياق، والخاتمة. والكلام الذي انعدم فيه واحد منها أو أكثر هو لا يكون كلامًا مؤثرًا، ولا يعبأ به أحد. وأما القرآن فنحن نؤمن بوجود الفصاحة والبلاغة فيه على أعلى حد، لا يكون بعده حد، فيلزمنا أن نعتقد أن القرآن الذي جمع الله سبحانه وتعالى كلامه فيه سورة وسورة، تشتمل جميع سوره، كبيرة كانت أو صغيرة، على تلك العناصر الأساسية الأربعة المذكورة آنفًا، فلا بد للذين يريدون الاهتمام بنظم القرآن من اكتشاف هذه

العناصر الأربعة في كل سورة، كي يصلوا إلى الحكمة الثاوية في كل كلمة وردت في سورة، ويستطيعوا أن يفسروا القرآن بقلب مطمئن، والوسيلة الوحيدة للوصول إلى تلك العناصر الأربعة وإبرازها هي تدبر القرآن طول الحياة. فنظم القرآن منهجٌ لتفسير القرآن، يهدف إلى استكشاف الحكمة بين ترتيب الآيات في سورة، ويهدي متدبر القرآن إلى وحدة الموضوع في سورة واحدة. والفرق بين نظرية نظم القرآن عند البلاغيين والمفسرين دقيق؛ فنظم القرآن عند البلاغيين نظرية فقط، بينما هو عند المفسرين منهج لفهم القرآن وتفسيره.

تفسير ابن عاشور ونظم القرآن

زوَّد الإمام ابن عاشور تفسيره بمقدمة ضافية تشتمل على عشر مقدمات، كلها متعلقة بعلوم القرآن. والقضايا التي تكلم عنها ابن عاشور فيها هي: التفسير، والتأويل، وكون التفسير علما، واستمداد علم التفسير، وصحة التفسير بغير المأثور، ومعنى التفسير بالرأي، وما يحق أن يكون غرض المفسر، وأسباب النُّزول، والقراءات، وقصص القرآن، واسم القرآن وآياته وسوره وترتيبها وأسمائها، ومعاني جمل القرآن، وإعجاز القرآن. ناقش فيها ابن عاشور آراء العلماء البارزين، وحاول التدليل على ما يرى أنه الحق. وأما نظرية نظم القرآن وأهميته في تفسير القرآن فقد ذكرهما في مقدمته العاشرة تحت عنوان "إعجاز القرآن". فهذا واضح من مناقشته في نظم القرآن أنه يؤيد موقف البلاغيين.

نظرة عامة على منهج ابن عاشور في تفسيره

يمكن أن يُعدَّ ابن عاشور في المفسرين الأثريين والمفسرين الاجتهاديين، هذا من جانب. ومن جانب آخر هو يختلف إلى حد ما عن المفسرين المتقدمين

والمتأخرين لاستخدامه نظم القرآن الذي تغاضى عنه معظم المفسرين. والأسلوب الذي استخدمه ابن عاشور في تفسير كل سورة يتكون من اثني عشر عنصرًا منهجيًّا، وهي:

الأول: تحقيق أسماء السورة، سواء أكانت معروفة أو غير معروفة.

الثاني: ذكر عدد آيات السورة.

الثالث: بيان زمن نزول السورة، مكية أو مدنية.

الرابع: تعيين الترتيب التاريخي لنُزول السورة.

الخامس: بيان أسباب النُّزول للسورة.

السادس: إحصاء أغراض السورة.

السابع: تفسير الآيات بالترتيب مركزا على فصاحتها وبلاغتها.

الثامن: توضيح الأحكام الفقهية المستنبطة من الآيات التشريعية مع ذكر آراء الفقهاء المختلف فيها.

التاسع: ذكر معاني الكلمات في كل آية باعتبار لغتها الأصيلة.

العاشر: بيان اختلاف القراء في قراءة بعض الكلمات في الآيات.

الحادي عشر: اقتباس الآراء المختلفة للنحويين في أهمية بعض الكلمات الواردة في الآيات.

الثاني عشر: تدبر الآيات التي تظهر ببادئ النظر غير متناسبة بعضها مع بعض للوصول إلى وجه من الوجوه للتناسب بين الآيات.

تطبيق العناصر الاثني عشرة السابقة على تفسير ابن عاشور لسورة التحريم

كما ذكرنا آنفًا أن أسلوب ابن عاشور التفسيري يتكون من اثني عشر عنصرا، فيكون جِدَّ مناسبٍ أن نطبقها عمليًّا على تفسير إحدى السور القرآنية،

واخترنا لذلك سورة التحريم نموذجًا؛ لأنها سورة قصيرة، ومشتملة على قضايا تفسيرية. فنختصر محاولة ابن عاشور التفسيرية لسورة التحريم، فيقول:

[اسم السورة:] سميت سورة "التحريم" في كتب السنة والتفسير. ومن أسمائها الأخرى كما وردت في المصادر هي: "سورة اللِّمَ تُحَرِّمُ"، و"سورة النبي ﷺ"، و"سورة النساء".

[عدد آيات السورة:] واتفق أهل العدد على أن عدة آيها اثنتا عشرة.

[بيان زمن نزول السورة، مكية أو مدنية:] وهي مدنية بإجماع أهل العلم. وحكي عن قتادة أن أولها إلى تمام عشر آيات وما بعدها مكي. ولعله أراد إلى عشر آيات، أي أن الآية العاشرة من المكي؛ إذ من البعيد أن تكون الآية العاشرة مدنية، والحادية عشر مكية.

[رقمها في ترتيب السور:] وهي معدودة الخامسة بعد المائة في عداد نزول سور القرآن، نزلت بعد سورة الحجرات، وقبل سورة الجمعة. ويدل قوله: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ [التحريم:2] أنها نزلت بعد سورة المائدة كما سيأتي.

[سبب النُّزول:] حادثتان حدثتا بين أزواج النبي ﷺ: الأولى: شرب رسول الله ﷺ عسلا عند زينب إحدى زوجاته، فعلمت بذلك عائشة، فتواطأت هي وحفصه على أن أيتهما دخل عليها تقول له: إني أجد منك ريح مغافير، أكلت مغافير[2]، وكان النبي ﷺ يكره أن توجد منه رائحة، وإنما تواطأتا على ذلك غيرة منهما أن يحتبس عند زينب زمانا يشرب فيه عسلا. فدخل على حفصة فقالت له ذلك، فقال: «بل شربت عسلا عند فلانة ولن أعود له»، أراد

[2] والمغافير صمغ شجر العرفط، وله رائحة مختمرة.

بذلك استرضاء حفصة في هذا الشأن وأوصاها أن لا تخبر بذلك عائشة لأنه يكره غضبها، فأخبرت حفصة عائشة فنَزَلت الآيات. وهذا أصح.

والثانية: حرّم رسول الله ﷺ أم إبراهيم جاريته فقال: «والله لا أطؤك» ثم قال: «هي علي حرام» فأنزل الله تعالى هذه الآيات. وتفصيل هذا الخبر أن عمر قال: دخل رسول الله ﷺ بأم ولده مارية في بيت حفصة، فوجدته حفصة معها، وكانت حفصة غابت إلى بيت أبيها. فقالت حفصة: تدخلها بيتي، ما صنعت بي هذا من بين نسائك إلا من هواني عليك. فقال لها: «لا تذكري هذا لعائشة فهي علي حرام إن قربتها»... فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾. وهو حديث ضعيف.

أغراض هذه السورة: ذكر ابن عاشور سبعة أغراض، وهي: الأول: لا يجوز لأحد أن يحرم على نفسه ما أحله الله له. والثاني: يُطْلِع الله النبي ﷺ على ما يخصه من الحادثات. والثالث: من حلف على يمين فرأى حنثها خيرًا من برّها فعليه أن يكفر عنها. والرابع: تعليم الأزواج أن لا يكثرن من مضايقة أزواجهن فإنها ربما أدت إلى الملال فالكراهية فالفراق. والخامس: موعظة الناس بتربية بعض الأهل بعضا، ووعظ بعضهم بعضا. والسادس: وصف عذاب الآخرة ونعيمها وما يفضي إلى كليهما من أعمال الناس صالحاتها وسيئاتها. والسابع: ضرب مثلين من صالحات النساء وضدهن.

[نكات الفصاحة:] ما تكلم ابن عاشور عن الفصاحة في السورة وبلاغتها إلا في كلمة واحدة وهي "قلوبكما" بصيغة الجمع ولكن بمعنى المثنّى، وقال: "إذ كان المخاطب مثنى كانت صيغة الجمع في قلوب مستعملة في الاثنين طلبًا لخفة اللفظ عند إضافته إلى ضمير المثنى كراهية اجتماع مثنيين؛ فإن صيغة

التثنية ثقيلة لقلة دورانها في الكلام، فلما أمن اللبس ساغ التعبير بصيغة الجمع عن التثنية".

[أحكام فقهية:] في السورة حكم فقهي واحد فقط، وهو ما يخص تحلة اليمين. قدم ابن عاشور في هذا الأمر آراء الفقهاء مالك بن أنس وأبي حنيفة وغيرهما.

[معاني الكلمات باعتبار لغتها الأصيلة:] اختار ابن عاشور كلمات كثيرة من هذه السورة، وتحدث عن معناها في اللغة الأصيلة.

[آراء القراء:] اختار ابن عاشور بعض الكلمات، وقدم اختلاف القراء في قراءتها. مثلا أنه قال في كلمة {عرف}: "وقرأ الجمهور بالتشديد، وقرأ الكسائي بتخفيف الراء".

[آراء النحويين:] ركز ابن عاشور على أهمية الواو في الآية الخامسة التي تتحدث عن سبع صفات لزوجات الرسول ﷺ ﴿مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا﴾ حيث ذكر فيها آراء النحويين، منهم ابن خالويه، والحريري، والدماميني، والسهيلي، وابن المنير.

[النظم بين الآيات:] يتكلم ابن عاشور في تفسير كل آية عن الربط بينها وبين الآية التي قبلها. مثلا في تفسير الآية العاشرة ﴿ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط...﴾ يقول ابن عاشور: إنما أعقبت جملة ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين﴾ في الآية التاسعة هذه الآية العاشرة، والمقصود منها تهديد الكافرين والمنافقين بعذاب السيف في الدنيا، وإنذارهم بعذاب الآخرة[3].

---

[3] ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد الشاذلي بن عبد القادر بن محمد بن عاشور، **التحرير والتنوير**، (بيروت: مؤسسة التاريخ العربي، 2000م)، ج28، ص307-340.

كيفية محاولة ابن عاشور في اكتشاف النظم بين الآيات في سورة:

من الصعب جدًّا اكتشاف النظم بين الآيات التي تبدو غير متصلة معنًى بعضها ببعض، ولعل ذلك هو السبب لعدم اهتمام معظم المفسرين به، وعدم تفكيرهم في كيفية النظم بين الآية والتي قبلها والتي بعدها، فبالنظر إلى هذا يمكن تقسيم الآيات في سورة إلى نوعين:

1- آيات لا تحتاج إلى تدبر عميق للنظم بينها.

2- آيات يحتاج المفسر إلى تفكير مستمر طول حياته في نظمها.

يبدو أن ابن عاشور نجح في هذا العمل؛ لأنه استخدم لاكتشاف النظم بين الآيات خمسة مصادر أو وسائل، وهي: الأحاديث الصحيحة، وآراء العلماء والمفسرين بمن فيهم الزمخشري والرازي، وبلاغة القرآن وفصاحته، وأساليب البيان العربي القديم، والتدبر.

نأتي في السطور الآتية على بيان محاولة ابن عاشور لتعيين النظم بين الآيات في ثلاث سور، وهي: الفاتحة، والبقرة، والجمعة نموذجا.

النظم في سورة الفاتحة

بدأ ابن عاشور تفسير سورة الفاتحة بحديث النبي ﷺ الذي رواه أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل: قسمت الصلاة نصفين بيني وبين عبدي، فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل، يقول العبد: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾، فأقول: حمدني عبدي، فإذا قال العبد: ﴿الرحمن الرحيم﴾، يقول الله: أثنى علي عبدي، وإذا قال العبد: ﴿مــلك يوم الدين﴾، قال الله: مجدني عبدي، وإذا قال: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾، قال الله: هذا بيني وبين عبدي، وإذا قال: ﴿اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت

عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾، قال الله: هؤلاء لعبدي، ولعبد ما سأل»[4].

لم يذكر ابن عاشور هذا الحديث لبيان النظم بين آيات الفاتحة، أو فضل سورة الفاتحة، وإنما ذكره لإثبات القول بأن في الفاتحة سبع آيات. ولكن هذا الحديث في الحقيقة قد يبرر وجه النظم بين الآيات في سورة الفاتحة. وهذا عجيب أن ابن عاشور ما شعر بأهمية الحديث المذكور في تعيين النظم في الفاتحة.

النظم في سورة البقرة

كما قلنا سابقًا بأن آيات أي سورة تنقسم إلى نوعين: واضحة النظم، خافية النظم، فعلى ذلك آيات سورة البقرة على ذينك النوعين، فالأول يحتوي على الآيات التي يوجد بينها ربط واضح، والثاني يحتوي على آيات لا تظهر ببادئ النظر الصلة بينها. فنرى كيف عين ابن عاشور النظم بين الآيات في النوع الثاني.

الآيات: 1-29 ﴿الم. ذلك الكتاب لا ريب فيه ... هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيئ عليم﴾ مرتبطة بعضها ببعض. وتحدثت هذه الآيات عن ثلاثة أصناف من الناس، وهم: المؤمنون، والكافرون، والمنافقون. وهي مشتملة على إنذار الكافرين والمنافقين لرفضهم الحق، وذكّرهم الله سبحانه وتعالى أنهم هم السفهاء، واستخدم لذلك أمثالاً عديدةً. ودعاهم الله إلى أن يسلموا ويخضعوا له

[4] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج1، ص134.

ويومنوا به؛ لأنه هو الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما، ويدبر الأمر فيها دائما.

وفي الآيات التالية: 30-39: يأتي ذكر خلق آدم، ومكانته خليفة وعالما ومسجودا للملائكة، وإقرار الملائكة بأن آدم أرفع مكانة منهم، ورفض إبليس علو مكانة آدم، وسكون آدم وحواء في الجنة، وخطأ آدم وحواء وإخراجهما من الجنة، وتوبتهما مما حدث منهما من الخطأ، ونزولهما في الدنيا. فما الربط بين هذه الآيات والآيات التي قبلها (1-29)؟

لا يحاول ابن عاشور اكتشاف المناسبة بين هاتين المجموعتين من الآيات، بل هو يركز على تعيين الربط بين آية وبين آية بعدها. ولأجل ذلك يقول ابن عاشور إن الربط بين الآية: 29 ﴿هوالذي خلق لكم ما في الأرض جميعا...﴾ وبين الآية: 30 ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة...﴾ هو ذكر خلق أول البشر بعد ذكر خلق السماوات والأرض. فيقول ابن عاشور: "عطفت الواو قصة خلق أول البشر على قصة خلق السماوات والأرض، انتقالاً بهم في الاستدلال على أن الله واحد وعلى بطلان شركهم، وتخلُّصًا من ذكر خلق السماوات والأرض إلى خلق النوع الذي هو سلطان الأرض والمتصرف في أحوالها، ليجمع بين تعدد الأدلة وبين مختلف تكوين العوالم وأصلها، ليعلم المسلمون ما علمه أهل الكتاب..."[5].

أسلوب ابن عاشور هذا يماثل أسلوب الرازي والبقاعي اللذين يأتيان بسبب واحد أو أسباب عديدة للمناسبة بين الآية واللاحقة. وهذا ليس بذاك النظم الذي نحن بصدده الآن. والنظم في سورة الذي نحن بصدده هو يقتضي النظر في الحكمة الثاوية في مجموعة من الآيات التي يحتمل أن تتحدث عن

[5] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج1، ص381.

موضوع واحد، وبين مجموعة أخرى منها التي تتكون من موضوع آخر. وأما ما قاله ابن عاشور في بيان الربط بين الآية: 29 والآية: 30 ليس هو النظم.

كما يرى أي واحد أن الآيات 1-29 تلمس موضوعًا واحدًا، وهو أن الناس كلهم على ثلاثة أنواع: المؤمن، والكافر، والمنافق، وخاطبهم الله سبحانه وتعالى بأوصافهم المختلفة والمتغايرة. بينما الآيات 30-39 تحتوي على موضوع آخر، وهو خلق آدم وردّ الفعل المختلف من جانبين، الملائكة وإبليس، وامتحان آدم وزوجته في الجنة، وارتكابهما الخطأ، وتوبتهما من الخطأ، وتمكينهما في الأرض. فعلى المفسر اكتشاف الربط بين هذين الموضوعين المختلفين.

وإنما الربط بينهما -كما قال الإصلاحي- هو أن المجموعة الأولى قد ذكرت نوعين من الناس، وهما: المؤمنون والكافرون، والمجموعة الثانية جاء فيها بيان خلق آدم ورفض إبليس حكم ربه، فالمجموعة الثانية هذه تدل على أن ما فعله آدم وحواء بعد ارتكاب الخطأ من التوبة هو في الحقيقة وصف المؤمنين، وما فعله إبليس هو صفة الكافرين، ومن ثَمَّ كما أنعم الله على آدم وحواء برحمته الخاصة كذلك سيغطي المؤمنين برأفته، وكما استحق إبليس الطرد من رحمته لرفضه حكم ربه كذلك يستحق الكافرون الطرد والعذاب بسبب إنكارهم وحدانية ربهم[6].

ويقول ابن عاشور في تفسير الآية:40 ﴿يبني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياى فارهبون﴾: "انتقال من موعظة المشركين إلى موعظة الكافرين من أهل الكتاب، ولذلك تتم موعظة الفِرَقِ المتقدِّمِ ذِكْرُها؛ لأن فريق المنافقين لا يعدو أن يكونوا من المشركين أو من

[6] الإصلاحي، أمين أحسن، **تدبر قرآن**، (نيو دلهي: شريكة التاج، 1997م)، ج1، ص153.

أهل الكتاب اليهود ..."[7]. كلام ابن عاشور هذا يشير في الحقيقة إلى وجه النظم بين مجموعة الآيات 1-39 ومجموعة الآيات 40-151 التي تخاطب اليهود بالتهديد. ولكن نرى أن ابن عاشور لم يبق على منهجه السابق لاكتشاف وجوه النظم بين الموضوعات المتفرقة في سور القرآن.

كما يتراءى لنا أيضًا أن ابن عاشور لم يقف على نظرية الموضوع الرئيسي أو العمود لكل سورة؛ إذ لو اطلع عليه لسهل له اكتشاف وجه النظم بين الموضوعات المتباينة في سورة البقرة وسور أخرى. وعمود سورة البقرة – كما قال سيد قطب والإصلاحي– هو انتقال السيادة والقيادة من أهل الكتاب إلى متبعي الرسول النبي الأمي ﷺ[8]. وبمعرفة هذا العمود لسورة البقرة سيكون سهلا للمفسر أن يفسر آياته في ضوء نظم القرآن.

والآيات: 221-241 تعالج ثلاثة أمور مهمة من الأمور الاجتماعية، وهي: النكاح والطلاق والعدة، ولكن الآيتين 238-239 ﴿حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ . فَإنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ تشتملان على أمر مختلف. فما وجه النظم بين تلك الأمور الاجتماعية الثلاثة والصلاة؟ يبدو أن ابن عاشور قد نسي في هذا المكان حبه لاستكشاف وجه النظم بين هذين الأمرين. ويستغرب القارئ مما ذكره ابن عاشور في الربط بين الأحكام المتعلقة بالزواج والطلاق والعدة وبين الصلاة. قال ابن عاشور: "الانتقال من غرض إلى غرض في آي القرآن لا تلزم له قوة ارتباط؛ لأن القرآن ليس كتاب تدريس يرتب بالتبويب وتفريع المسائل بعضها على بعض، ولكنه كتاب تذكير

[7] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج1، ص432.

[8] سيد قطب، **في ظلال القرآن**، (القاهرة: دار الشروق، 1996م)، ج1، ص28؛ والإصلاحي، **تدبر قرآن**، ج1، ص652.

وموعظة، فهو مجموع ما نزل من الوحي في هدي الأمة وتشريعها وموعظتها وتعليمها، فقد يجمع فيه الشيء للشيء من غير لزوم ارتباط وتفرع مناسبة، وربما كفى في ذلك نزول الغرض الثاني عقب الغرض الأول، أو تكون الآية مأمورًا بإلحاقها بموضع معين من إحدى سور القرآن ... ولا يخلو ذلك من مناسبة في المعاني، أو في انسجام نظم الكلام، فلعل آية ﴿حافظوا على الصلوات﴾ نزلت عقب آيات تشريع العدة والطلاق لسبب اقتضى ذلك من غفلة عن الصلاة الوسطى، أو استشعار مشقة في المحافظة عليها، فموقع هذه الآية موقع الجملة المعترضة بين أحكام الطلاق والعدة ... لما طال تعاقب الآيات المبينة تشريعات تغلب فيها الحظوظ الدنيوية للمكلفين، عقبت تلك التشريعات بتشريع تغلب فيه الحظوظ الأخروية، لكي لا يشتغل الناس بدراسة أحد الصنفين من التشريع عن دراسة الصنف الآخر ...".

قلت: هذا أمر غريب جدا من ابن عاشور؛ لأنه أنكر أولاً وجود النظم بين الموضوعين المتباينين المذكورين، وبعد ذلك قال بأن جملة المحافظة على الصلوات جملةٌ معترضةٌ، ثم راح يميل إلى اكتشاف وجه النظم بين حكم الصلاة وأحكام النكاح والطلاق. هل هذا يعني أن ابن عاشور عجز عن البحث عن وجه الربط في الكلام المنَزَّل؟ وكيف حدث هذا لابن عاشور الذي يؤمن بأن القرآن كلام معجز؟ وهل يمكن للكلام المعجز البليغ الفصيح أن يكون عاريا عن النظم القوي بين الكلمات والبيانات فيه؟ ولا يتأتى إعجاز القرآن في الحقيقة إلا بنظم القرآن.

والتدبر في هذين الموضوعين المختلفين لا بد أن يؤدي بنا إلى وجه معقول لارتباط حاسم بينهما. تعالوا نتدبر: ذكر الله في الآيات (221-242) أربع خصائص لمخاطبي هذه الأحكام، وهي: التوابين، والمتطهرين (222)، والمؤمنين (223)، والمحسنين (236). والمقصود بذكر هذه الصفات التأكيد

على أن الناس الذين يتصفون بهذه الصفات العالية هم الذين يستطيعون أن يمتثلوا بأوامر الله في النكاح والطلاق والعدة، وبدون هذه الخصائص ليس لأحد أن يتذكر ويتقي ويعمل بهذه الأحكام المَنَزَّلة، ولتطور هذه الصفات الأربع، ولتمكينها في الحياة اليومية يحتاج الإنسان إلى صفة أخرى، وهي: قانتين (238). والقنوت لله صفةٌ تحمل الناس على أن يتصفوا بالصفات الأربع المذكورة وترسخها في قلوبهم. وأما صفة القنوت فهي تحتاج لاستمرارها إلى الاهتمام بإقامة الصلوات والصلاة الوسطى. ولأجل ذلك دعا سبحانه وتعالى متبعي الرسول إلى إقاة الصلاة حق الإقامة. وهذا يعني أن الذين لا يهتمون بإقامة الصلاة، لا يستطيعون الاتصاف بالصفات المطلوبة، ولهذا لا يستطيعون إقامة الأحكام المَنَزَّلة الأخرى بما فيها أحكام النكاح والطلاق والعدة.

النظم في سورة الجمعة

الآية الأولى ﴿يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم﴾، يقول ابن عاشور: "افتتاحُ السورة بالإخبار عن تسبيح أهل السماوات والأرض لله تعالى براعةُ استهلالٍ؛ لأن الغرض الأول من السورة التحريض على شهود الجمعة، والنهي عن الأشغال التي تشغل عن شهودها"[9]. فابن عاشور بهذا البيان يماثل البقاعي الذي يدعي أن المقصود بسورة الجمعة الاهتمام بصلاة الجمعة[10]. لا شك في أن صلاة الجمعة لها مكان خاص في العبادات، وهذا فرض عين إلا بالأسباب المعينة في الشريعة الإسلامية. ولكن هل صفات الله الأربع المذكورة في هذه الآية لتحريض المؤمنين على الاهتمام

---

[9] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج28، ص185.

[10] البقاعي، إبراهيم بن عمر، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1995م)، ج7، ص590.

بالجمعة؟ لا، بل الحقيقة هي أن هذه الصفات ذكرت بمناسبة ذكر بعثة الرسول الأمّي من غير اليهود الذين كانوا يدعون أن النبي الخاتم قد يبعث فيهم، لا في غيرهم.

وفي محاولته لاستكشاف المناسبة بين الآيتين: الأولى: ﴿يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم﴾ والثانية: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ يقول ابن عاشور عند تفسيره للآية الثانية بأن الصفات الأربع ﴿الملك القدوس العزيز الحكيم﴾ تتعلق ببعثة الرسول الذي يطهر الناس ويزكيهم ويعلمهم.

لا شك فيه، ولكن عندما فصل ابن عاشور التعلق بين الصفات وبين بعثة الرسول أتى بشيء آخر. يقول: "فصفة {الملك} تعلقت بأن يدبر أمر عباده ويصلح شؤونهم، وصفة {القدوس} تعلقت بأن يزكي نفوسهم، وصفة {العزيز} اقتضت أن يلحق الأميين من عباده بمراتب أهل العلم ويخرجهم من ذلة الضلال فينالوا عزة العلم وشرفه، وصفة {الحكيم} اقتضت أن يعلمهم الحكمة والشريعة"[11].

لا يستطيع أحد أن يتحدى ابن عاشور على ما جاء به من الصلة بين الصفات الأربع ورسالة الرسول ﷺ. ولكن كما أكد الفراهي تأكيدًا بأن الكلام لا بد من أن يتكون من عناصر أربعة، وهي: التمهيد، والعمود، والمنهج، والخاتمة. فالتمهيد في سورة الجمعة الآية الأولى، والتمهيد كما هو معروف يتصل مباشرة بجميع العبارات في الكلام، وليس ببعض الأجزاء فيه

[11] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج28، ص185-186.

فقط. ولذا يمكن أن نقول بأن الصفات الأربع المذكورة في التمهيد ما تعلقت فقط بمهام النبي ﷺ.

وذكر ابن عاشور ستة أغراض لسورة الجمعة. وهي في الحقيقة محتوياتها، والتمهيد متعلق بهذه المحتويات الستة.

وعند ذكر المناسبة بين الآية الرابعة: ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ...﴾ والخامسة ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها ...﴾ يقول ابن عاشور: "بعد أن تبين أنه تعالى آتى فضله قوما أميين أعقبه بأنه قد آتى فضله أهل الكتاب فلم ينتفع به هؤلاء ..."[12].

هذه المناسبة التي ذكرها ابن عاشور لا تقنع العقول. لو نظر ابن عاشور إلى أغراض هذه السورة بنظر عميق لوجد وجه النظم بين هاتين الآيتين. وهو أن أحد أغراض السورة حسبما ذكرها ابن عاشور نفسه في البداية هو ذم اليهود، وهو محتوى الآية الخامسة. فلماذا هذا الذم؟ لأن اليهود لم يجعلوا أنفسهم مستحقين لفضل الله ببعثة النبي الخاتم فيهم، فالآية الخامسة تشير إلى أحد الأسباب العديدة لعدم استحقاق اليهود لفضل الله.

وعند تفسير الآية السادسة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ يقول ابن عاشور: "أعقب تمثيل حال جهلهم بالتوراة بذكر زعمٍ مِنْ آثار جهلهم بها إبطالاً لمفخرة مزعومة عندهم أنهم أولياء الله وبقية الناس ليسوا مثلهم"[13]. في الحقيقة أن الآيات 5-8 تُمَثِّل وثيقةً لجرائم اليهود تدليلاً على عدم استحقاقهم لفضل الله.

---

[12] المصدر السابق، ص191.

[13] المصدر السابق، ص193.

وعند ما وصل ابن عاشور إلى تفسير الآيتين: التاسعة والعاشرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ • فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ قال: "هذه الآيات هي المقصود من السورة، وما قبلها مقدمات وتوطئات لها"[14]. وللنظم بين هذه الآية وما قبلها استعار ابن عاشور ما ذكره الزمخشري في تفسيره "الكشاف" أن اليهود افتخروا على المسلمين بالسبت فشرع الله للمسلمين الجمعة، ثم قال حاسمًا: "فهذا وجه اتصال هذه الآية بالآيات الأربع التي قبلها، فكان لهذه الآية تمهيدا وتوطئة"[15].

هل ما ادعاه صاحب الكشاف من افتخار اليهود بالسبت غير ثابت، فلا داعي للادعاء الحاسم بأن الجمعة قد شرع للمسلمين في مقابل افتخار اليهود على المسلمين بالسبت، لا سيما أنه ما جاء ذكر السبت في أي آية في آيات سورة الجمعة. والحق -فيما أرى- أن هاتين الآيتين (9-10) متصلتان بالآية الأخيرة ﴿وإذا رأو تجارة أو لهوا ...﴾ التي جاء فيها تعريض بتوبيخ المسلمين، وابن عاشور نفسه يرى أن الآية الأخيرة معطوفة على الآيتين التاسعة والعاشرة.

يهدينا التدبر في هذه الآيات الثلاث إلى أنها تكون موضوعا واحدا. فعلى المتدبر أن يكشف وجه الارتباط بين هذا الموضوع والموضوعات الواردة في الآيات الثمان، لذلك يجب عليه أن يتفكر في ما هو عمود هذه السورة، فعمودها هو انتقال القيادة من اليهود إلى المسلمين. فإذا حددنا عمود السورة ذلك فارتبطت جميع آيات سورة الجمعة بعضها مع بعض. وأما عمودها عند

---

14 المصدر السابق، ص196.

15 المصدر السابق، ص197.

ابن عاشور فهو إقامة الجمعة، فهل يمكن به الكشف عن وجه النظم بين جميع الآيات؟

الآيات الأولى (1-8) تتكلم عن أسباب تجريد اليهود من منصب السيادة، وبعثة النبي الخاتم في غير أهل الكتاب، والآيات الثلاث الأخيرة تشتمل على تنبيه المسلمين بمثال واحد يتعلق بإقامة الجمعة. فقيل لهم في الآيات الأخيرة: إن اليهود قد حرموا فضل الله بأسباب، منها حبهم الجم للدنيا، والمسلمون الذين قد فضلوا على اليهود فعلوا مثل ما فعل اليهود، وهرولوا إلى التجارة واللهو تاركا رسولهم على المنبر. فجاء ذكر صلاة الجمعة في هذه السورة نموذجًا لتنبيه المسلمين، ولنصحهم بأنهم حاملو سيادة الناس الآن كما كان اليهود من قبل، فإنهم سوف يحرمون ذلك المنصب العالي إذا حذوا حذو اليهود.

الخاتمة

لعب ابن عاشور دورًا كبيرًا في تفسير القرآن، وفي إلقاء الضوء على النظم بين الآيات في سور القرآن، فهو بذلك يستحق الثناء والتقدير. ولكن للأسف الشديد ما استطاع الاطلاع على نظرية نظم القرآن وتطبيقها في تفسير القرآن كما اقترح عبد الحميد الفراهي (ت1930م) في رسائله. لو اطلع ابن عاشور على ما قاله الفراهي لاستخدم منهجه في تفسيره فأصبح تفسيره فريدًا فذًّا. والذي فعله ابن عاشور هو تحقيق المناسبة بين الآيات، وليس اكتشاف النظم بين الآيات. يبدو أن ابن عاشور رجح نظرية نظم القرآن من ناحية الإعجاز في القرآن، ونظم القرآن ليس فقط إبراز البلاغة والفصاحة في القرآن، وهو منهج عجيب يهدف إلى توضيح وحدة الموضوع في جميع السور القرآنية.

والحقيقة أن اكتشاف وحدة الموضوع في كل سورة خدمةٌ عظيمةٌ مؤديةٌ إلى حقيقة أن بلاغة القرآن وفصاحته مخفية في الكلام القرآني المربوط. وأما الذين لا يجدون أو لا يعتقدون النظم في القرآن فليس لهم حقٌّ في دعوى أن القرآن فيه البلاغة والفصاحة اللتان لا يستطيع أحد، سواء أكان من الإنس أو الجن، أن يشابههما تماما في كلامه.